

وجه ويفترق كل منهما عن الآخر في وجه. أرى أنه عموم وخصوص مطلق
فالسنة أخص من القانون.

هذا ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن السنة الإلهية لا تقبل النقض سواء أكانت في
الميدان المادي أم كانت في ميدان الاجتماع البشري. بيد أن المعول عليه أن تتأكد
أنها سنة إلهية على سبيل القطع، وذلك بأن ترد في نص قطعي الورود، قطعي
الدلالة، أما إذا وردت بغير هذا الطريق، فإنها تحتاج إلى بحث واستدلال حتى
يثبت أنها سنة، وهي في هذه الحالة تمر بما يمر به القانون من مراحل، بل إنها
تتطابق هنا مع القانون، ريثما ترتقي لتصبح سنة.

وعليه كان الخلاف بين السنة والقانون العلمي «خلاف في الدرجة وليس
خلافاً في النوع»^(١).

٢/٣: الغريزة والسنة الإلهية

علمنا أن سنة الله تعالى تعنى طريقته في معاملة خلقه المادي المجبور،
وخلقه الحي المختار. فالخلق الأول عامله سبحانه بأن أودع فيه سننه التي
يتعامل بها دون أن تكون له حرية أو إرادة في ذلك، فهو مستجيب لأمر الله
تعالى لا يعصيه. والخلق الثاني عامله سبحانه بأن بين له سننه معه، أي طريقته في
معاملته، فإن اتبعها تحققت له نتائجها الطيبة، وإن أعرض عنها حققت عليه
نتائجها السلبية السيئة، وكان فوق ذلك محاسباً يوم القيامة على سلوكه في هذه
الدنيا، وعلى موقفه من سنن الله تعالى فيها، إذ هو خلق مكلف، يختلف عن

(١) د. جمال الدين عطية، سنن الله في الآفاق وفي الأنفس، مرجع سابق، ص ٢٢.

الخلق الأول ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ونريد أن نعرف هنا شيئاً آخر، جبل وفطر عليه الإنسان هو الغرائز، نريد أن نعرف علاقتها بالسنن، فهل الغرائز نوع من السنن؟

إننا إذا استعرضنا أساليب هداية الله تعالى إلى السنن - كما بينها من قبل - ممثلة في أسلوب القضية الشرطية، أو النص الصريح بلفظ السنة، أو ترتيب أمر على أمر آخر نفيّاً أو إثباتاً، أو أسلوب القضية المحتملة المنجزة الوقوع، إذا استعرضنا هذه الأساليب فلن نجد من بينها أسلوباً يتناول الحديث عن الغرائز والخبلة التي فطر الله الناس عليها، ومن هنا نستطيع القول: إن الغرائز التي يحملها الإنسان - وهي ذات تأثير كبير على سلوكه الاقتصادي وغير الاقتصادي قطعاً - لا علاقة لها بالسنن التي هي طريقة الله تعالى في معاملته لخلقه. فما جبل عليه الإنسان - كما قرر القرآن الكريم - من حب المال حباً شديداً ﴿ وَتُحِبُّونَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠]، ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨]، ﴿ دُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفُصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وما جبل عليه من البخل ومنع الفضل عندما يصيبه الغنى ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ٢١]، ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٌ ﴾ [فصلت: ٥١].

لكن هناك الأخيران من قبيل القضايا الشرطية.

وكذلك ما جبل الإنسان من غريزة الطغيان إذ ظن أنه في غنى عن ربه بما له من غنى ظاهر في الدنيا ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٦-٧] كل هذه الغرائز وغيرها لا تدخل معنا في حديثنا عن السنن، إذ هي ليست منها، فالسنن - مع التجاوز - هي قوانين صارمة عامة تجرى على الإنسان أحكامها قسراً، إن كانت من السنن الكونية، أو تجرى عليه من خلال سلوكه واستخدام حريته وإرادته التي منحها الله تعالى له، وكانت مناط تكليفه، إن كانت من السنن الاجتماعية. والغرائز ليست من أي من النوعين. إنها بعض مكونات الإنسان، وأجزاء منه، وهي قد خلقت في الإنسان لتمكينه من أداء مهمته في هذه الدنيا، فلم تخلق الغرائز في الإنسان ليقوم بكتبها والقضاء عليها، وإنما خلقت فيه ليبارس الاستجابة لأمر الله تعالى إياه بهذيب هذه الغرائز، واستخدامها في إطار التكليف. فإذا كان قد جبل على حب المال، فقد دعي إلى التخلي عنه حباً لله تعالى، وهنا تظهر إرادة الإنسان، ومدى استجابته لأمر الله تعالى. وإذا كان قد جبل على حب الشهوات، فقد دعي إلى التخلي عنها، وضبطها بموازين الإسلام، وهنا يظهر أيضاً مدى استجابة العبد لخالقه. وهكذا كل الغرائز الإنسانية، هي ذات تأثير كبير على السلوك الإنساني، لكنها ليست قوانين أو سنن تجرى أحكامها على الإنسان، إن قسراً أو من خلال سلوكه، كما هو الشأن في السنن الإلهية.